تفسير إبن كثير

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم ، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام رسول االله - صلى االله عليه وسلم - بين أظهرهم ؛ ولهذا لما خرج من بين أظهرهم ، أوقع االله بهم بأسه يوم بدر ، فقتل صناديدهم وأسرت سراتهم . وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب ، التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد .قال قتادة والسدي وغيرهما : لم يكن القوم يستغفرون ، ولو كانوا يستغفرون لما عذبوا .واختاره ابن جرير ، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين ، لأوقع بهم البأس الذي لا يرد ، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك ، كما قال تعالى في يوم الحديبية : (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل االله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) [الفتح : 25] .قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ،

حدثنا يعقوب ، عن جعفر بن أبي المغيرة ، عن ابن أبزى قال : كان النبي - صلى االله عليه وسلم - بمكة ، فأنزل االله : (وما كان االله ليعذبهم وأنت فيهم) قال : فخرج النبي - صلى االله عليه وسلم - إلى المدينة ، فأنزل االله : (وما كان االله معذبهم وهم يستغفرون) قال : وكان أولئك البقية من المؤمنين الذين بقوا فيها يستغفرون - يعني بمكة - فلما خرجوا ، أنزل االله : (وما لهم ألا يعذبهم االله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه) قال : فأذن االله في فتح مكة ، فهو العذاب الذي وعدهم .وروي عن ابن عباس ، وأبي مالك والضحاك ، وغير واحد نحو هذا .وقد قيل : إن هذه الآية ناسخة لقوله : (وما كان االله معذبهم وهم يستغفرون) على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم .قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يحيى بن واضح ، عن الحسين بن واقد ، عن يزيد النحوي ، عن عكرمة والحسن البصري قالا قال في " الأنفال " : (وما كان االله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان االله معذبهم وهم يستغفرون) فنسختها الآية التي تليها : (وما لهم ألا يعذبهم االله) إلى قوله : (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) فقوتلوا بمكة ، فأصابهم فيها الجوع والضر .وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي تميلة يحيى بن واضح

.وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا حجاج بن محمد ، عن ابن جريج وعثمان بن عطاء ، عن عطاء ، عن ابن عباس : (وما كان االله معذبهم وهم يستغفرون) ثم استثنى أهل الشرك فقال [تعالى] : (وما لهم ألا يعذبهم االله وهم يصدون عن المسجد الحرام)وقوله : (وما لهم ألا يعذبهم االله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون) أي : وكيف لا يعذبهم االله وهم يصدون عن المسجد الحرام أي الذي ببكة ، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة عنده والطواف به ؛ ولهذا قال : (وما كانوا أولياءه) أي : هم ليسوا أهل المسجد الحرام ، وإنما أهله النبي - صلى االله عليه وسلم - وأصحابه ، كما قال تعالى : (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد االله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون إنما يعمر مساجد االله من آمن باالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا االله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) [التوبة : 17 ، 18] ، وقال تعالى : (وصد عن سبيل االله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند االله [والفتنة أكبر من القتل]) الآية [البقرة : 217] . .وقال الحافظ أبو بكر

بن مردويه في تفسير هذه الآية : حدثنا سليمان بن أحمد - هو الطبراني - حدثنا جعفر بن إلياس بن صدقة المصري ، حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا نوح بن أبي مريم ، عن يحيى بن سعيد الأنصاري ، عن أنس بن مالك - رضي االله عنه - قال : سئل رسول االله - صلى االله عليه وسلم - : من آلك ؟ قال : كل تقي ، وتلا رسول االله - صلى االله عليه وسلم - : (إن أولياؤه إلا المتقون)وقال الحاكم في مستدركه : حدثنا أبو بكر الشافعي ، حدثنا إسحاق بن الحسن ، حدثنا أبو حذيفة ، حدثنا سفيان ، عن عبد االله بن عثمان بن خثيم عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعة ، عن أبيه ، عن جده قال : جمع رسول االله - صلى االله عليه وسلم - قريشا فقال : هل فيكم من غيركم ؟ قالوا : فينا ابن أختنا وفينا حليفنا ، وفينا مولانا . فقال : حليفنا منا ، وابن أختنا منا ، ومولانا منا ، إن أوليائي منكم المتقون .ثم قال : هذا [حديث] صحيح ، ولم يخرجاه .وقال عروة ، والسدي ، ومحمد بن إسحاق في قوله تعالى : (إن أولياؤه إلا المتقون) قال : هم محمد - صلى االله عليه وسلم - وأصحابه ، رضي االله عنهم .وقال مجاهد : هم المجاهدون ، من كانوا ، وحيث كانوا .ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام ، وما كانوا يعاملونه به